المصطلحات اللسانية عند ابن خلدون

في ضوء اللسانيات المعاصرة

أ.عمر لحسن

جامعة عنابة

مقدمة

قد يتساءل أحد عن سبب الاهتمام بابن خلدون في عصرنا، وقد بلغت الدراسات اللسانية في العالم مستويات من التفكير تضاهي أكثر العلوم الإنسانية والتكنولوجية غير أن هذا التقدم السريع جعلها تقيم قطيعة مع الدراسات اللسانية القديمة، وفي هذا التقدم السريع جعلها تقيم قطيعة مع الدراسات اللسانية القديمة، وفي هذا الصدد يقول

تشومسكي: "وفي المقابل، انقطعت اللسانيات الحديثة بطواعية عن النظرية اللسانية التقليدية وحاولت إنشاء نظرية لسانية بكيفية جديدة كل الجدة ومستقلة. ولم يهتم اللسانيون المحترفون عموما إلا قليلا بالإسهامات المقدمة إلى النظرية اللسانية من قَبِل التقليد الأوروبي السابق، واهتموا بمسائل مختلفة جدا، داخل نطاق ثقافي بعيد عن أن يجعلهم مدركين للمسائل التي أثارتها الدراسات اللسانية الأكثر قدما، والتي أوصلت إلى النتائج المحققة إلى حدّ الآن، ومازالت إلى اليوم نجهل كثيرا إسهامات الماضي هذه أو ننظر إليها باستخفاف غير خفي"[1] ولم يكن العرب بمنأى عن هذا الموقف المجحف، وذلك لأنهم انساقوا وراء منجزات اللسانيات المعاصرة الوافدة من الغرب . والمغلوب مولع بالغالب دائما . تاركين وراءهم تراثا عربيا زاخرا ولهذا السبب فكرت في هذه الدراسة أن ألقي الضوء على الإسهامات اللسانية لابن خلدون، التي بقيت مجهولة رغم الدارسات والمقالات والكتب التي ألفت حوله فكانت عبارة عن تأملات ونظرات في المباحث اللسانية عنده، وما قابلها من نظريات وآراء في اللسانيات المعاصرة، بمختلف مدارسها ومناهجها.

قد يرى البعض أنني مجحف في حق الرجل، بإقحامه في مجال هو بعيد عنه، مجال اللسانيات في العشرين، وهو الذي عاش في القرن الخامس عشر، لكن الذي جعلني أجرؤ على هذا الموقف أنّ أغلب الذين أرجّوا له عدّوه متجاوزا عصره بكثير، أو اعتبروه طفرة في الزمن، حيث يقول المسدي: "وكثيرا ما يشير الباحثون إلى غرابة ظهور ابن خلدون في فترة انحسار المد الحضاري العربي، معتبرين أن المناخ الفكري الذي ساد طيلة القرن السابع والقرن الثامن ما كان يسمح موضوعيا بظهور فكر متميّز على الصعيد

الإنساني يتجاوز كل مكتسبات المعرفة البشرية الحاصلة قبله"[2] ويقول باحث آخر: "ربما كان من الإنصاف بمكان أن نعترف (...) بأننا مجحفون في حق الرجل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل ما تكتتره الشخصية العلمية الفذة من معارف انسكلوبيدية جامعة وإحاطات علمية وإبستمولوجية واسعة، على الرغم من العصر الذي وجد فيه ابن خلدون كان عصر وهن وضعف وضحالة في فضاءات الفكر والإبداع".[3]

إن ما زاد اهتمامي بالجانب اللساني عند ابن خلدون أن أغلب الدارسين من الغرب والشرق نظروا إلى شخصيته من زوايا علمية متعددة، وعدّوه متعدد الاختصاص متشعب الاهتمامات، فهو تارة عالم اجتماع، وتارة فيلسوف، وتارة مؤرخ، ذلك أن "مذهبه الفكري وأسلوبه الذي في حقيقته مزيج من علوم معددة".[4]

لقد كان ابن خلدون من ألمع الشخصيات العربية الإسلامية التي حظيت بمكانة متميزة عند المفكرين الغربيين والعرب، بل ربما كان اهتمام الغرب بآرائه وأفكاره هو الذي دفع العرب إلى الاهتمام به فلولا تحقيقهم . الغرب . آثاره ونشرها وترجمتها إلى لغاتهم ما نال الحظوة التي نالها عند أهله من العرب[5] ولما كان اهتمام الغرب منصبا على الجوانب الفكرية والفلسفية والاجتماعية، فقد أهملت آراؤه في المجال اللساني، رغم أنها لا تقل أهمية عن غيرها من الآراء الخلدونية. وهذا ما حدا لي إلى محاولة إلقاء الضوء على المصطلحات الواردة في المقدمة، فإنني أقتصر هنا على أربعة مصطلحات، أراها من أهم دعائم النظرية اللسانية عند ابن خلدون: الملكة، علوم اللسان، النحو، الصوت.

1 المـلكة

استخدم ابن خلدون مصطلح الملكة في فصول كثيرة من المقدمة، دون أن يقدم لنا تعريفا له، على خلاف ما عهدناه في التعامل مع المصطلحات الأخرى، إذ نجده يعرف كل مصطلح يستعمله في كتابه، بل إن الغرض الذي ألف من أجله المقدمة، كما أسلفنا، هو أن تكون المقدمة "مستوعبة لمقولات الفكر النقدي، مع غزارة تأليفية هي وليدة القدرة على التجريد والطاقة على الاستقطاب المعرفي الشامل"[6]، وكأنه لا يرى حاجة غلى تعريفه، فهو معروف عند العامة والخاصة وأيا كان الأمر، فالملكة هي: "الكيفية الراسخة في النفس التي يقتدر بها على استحضار ما كانت في علمته واستحصال ما لم تعلمه"[7].

إن هذا التعريف الذي ينم عن فهم دقيق وعلمي للظاهرة اللسانية، هو الذي نستشفه من السياقات المختلفة التي ورد فيها مصطلح الملكة عند ابن خلدون، إذ يركز على ضرورة الرسوخ والقدرة على الداء بشكل مثالين حيث يقول: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم

حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"[8] فالأداء الجيد للغة يتوقف على حصول الملكة شكلها المثالي.

واستعمال هذا المصطلح عند ابن خلدون يجعلنا نستحضر ثنائية مشهورة في اللسانيات الغربية، وهي التي ميز فيها اللساني الأمريكي تشومسكي بين مصطلحين، يشملها معا مصطلح ابن خلدون، هما مصطلحا الكفاءة والأداء ويقابلهما في الفرنسية (compétence et performance)، أما الأول فهو "معرفة المتكلم، المستمع بلغته،" واما الثاني "الاستعمال الفعلي للكفاءة في مواقف فعلية"[9] غير أن ابن خلدون قد استطاع أن يجمع المصطلحين في موقف واحد، إذ الملكة عنده في اللسان للعبارة عما هو موجود في الذهن، فقد شمل المصطلح، إذن مفهومي الكفاءة والأداء وإن كان بعض العرب يترجمون مصطلح compétence بالملكة، وهذه ترجمة غير دقيقة بالمفهوم الخلدوني للملكة.

وإذا كانت الملكة عند ابن خلدون هي التي تحدد نوعية أداء المتكلم للغة، إذ أن جودة تحصيلها تنعكس على جودة نوعية الأداء فإنه يختلف بإخلاف هؤلاء المتكلمين واختلاف مستوياتهم الثقافية والتعليمية، وباختلاف الأوساط الاجتماعية التي ينتمون إليها.[10]

والملكة تحصّل باعتماد منهج خلدوني، واضح يشرحه في قوله: "والملكات لا تحصّل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة

راسخة[11]فهي تمر بثلاث مراحل، حيث تكون في البداية صفة، صم تصبح حالا بعد تكرارها، وتعود في الأخير ملكة تمتاز بالرسوخ.

2 علوم اللسـان

إن الحيرة الاصطلاحية التي لمسناها في الصفحات الأولى من كتاب دو سوسير، وهو يحاول تحديد موضوع اللسانيات (التي تسعى إلى أن تصبح علما)، حيث يميز بين ثلاثة مستويات هي:langage – langue-parole، لا نجد لها أثرا عند ابن خلدون، حين أراد أن يصنف علوم اللسان، حيث يقول: " في علوم اللسان العربي: أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة"[12] فاللسان، في هذا التعريف يشمل موضوعات متنوعة، وتدخل في تكوينه عناصر مختلفة، ولذلك فإننا نراه مقابلا لمصطلح سوسير langage، الذي يعرفه صاحبه قائلا "اللغة واللسان عندنا ليسا بشيء واحد فإنما هي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة هذه الملكة وإذا أخذنا اللسان جملة بدا لنا متعدد بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي"[13]. أما اللغة فتقابل عند سوسير مصطلح langue، الذي يعرفه قائلا: "أما اللغة فهي على عكس ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب وما إن نعطي اللغة المكانة الأولى ضمن أحداث اللسان، حتى ندخل نظاما طبيعيا إلى مجموعة من الظواهر لا تسمح بأي نوع من التصنيف"[14].

وما نستشفه من هذه التعريفات التي جاء بها ابن خلدون وسوسير أن اللغة جزء من اللسان، وأن اللسان أعم وأشمل منها، إذ هي تدخل في تكوينه، وإن كان عبد القادر المثيري يرى عكس ذلك، إذ يعتقد أن ابن خلدون يستعمل مصطلح اللسان للإشارة غلى نظام علامي بعينه، ومصطلح اللسان، ومنها في المرتبة الأولى أداة التخاطب عامة بغض النظر عن كونها خاصة بقوم دون قوم.[15]

وإذ كان المصطلحان يتداخلان أحيانا في مقدمة ابن خلدون أو يترادفان . حسب رأي المهيري . فهذا، راجع في نظرنا، إلى التقارب الشديد في دلالتهما من جهة، وإلى أن السياقات التي وردا فيها لا يتطلبان الدقة الاصطلاحية العلمية غير أن السياق الخلدوني الذي أوردنا فرض على ابن خلدون أن يميّز بينهما تمييزا علميا صارما، إذ كان بصدد تصنيف العلوم أما المصطلح الثالث، وهو مصطلح الكلام، الذي يقابل مصطلح سوسير parole، فقد جاء كذلك مطابقا في معناه للمعنى الذي قصده سوسير، إذ يدل على الاستعمال الفردي للغة في المواقف التخاطبية المختلفة.

ومن جهة أخرى، فإن تصنيف ابن خلدون لعلوم اللسان يكاد يكون مطابقا لما نجده في اللسانيات المعاصرة، حيث يرى . كما أسلفنا . أن أركانه أربعة هي: النحو واللغة والبيان والأدب، ويتفرع كل ركن منها إلى مجموعة من الفروع لتكون شجرة علوم اللسان عنده كثيفة، وافرة واعتبر ابن خلدون هذه الأركان متفاوتة في القيمة والرتبة بحسب دورها في تحصيل الملكة لدى المتكلم، حيث جاء ترتيبها كمايلي[16]:

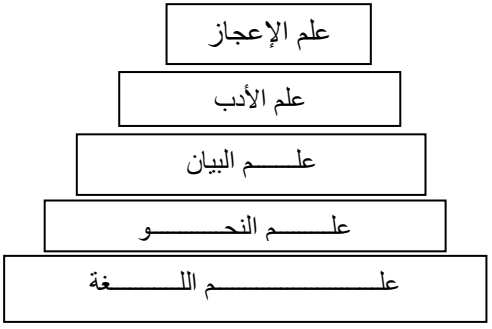

إن الهدف الأسمى من اكتساب اللغة واستعمالها وحصول ملكتها هو فهم النص القرآني والأحاديث النبوي الشريفة واستنباط الأحكام الشرعية منهما، حيث يقول: "فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في الترفيه بمقصود الكلام"[17]. ويقصد بعلم اللغة صناعة المعاجم، أما البيان فيقصد به البلاغة، التي يرى أنها فرع من علم البيان في قوله: "فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث في هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن

الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلنا ويسمى علم البيان وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع[18].

فالذي يثير انتباهنا فعلا: "أن الأصناف التي صنفها ابن خلدون تحت مصطلح علوم اللسان العربية هي عين ما نراه اليوم ونقف عليه في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة"[19]وخير مثال على هذا التصنيف ما نجده في كتاب "المعجم الموسوعي لعلوم اللسان"(le dictionnaire encyclopédique des sciences du langage)، حيث يشمل الموضوع والفروع التالية:

الباب الأول: المدارس اللسانية.

الباب الثاني: الحقول(les domaines)، واشتمل على الموضوعات التالية: مكونات الوصف اللساني، اللسانيات الجغرافية، على الاجتماع اللساني، علم النفس اللساني، البلاغة والأسلوبية، الشعرية، السيميائية، فلسفة اللغة.

الباب الثالث: المفاهيم المنهجية(les concepts méthodologiques)، ويتناولان فيه: الدليل، التركيب ونمطية الاستبدال، الفئات اللسانية، اللغة والكلام، المعيارية، الاعتباطية، الآنية والزمنية، تاريخ الأدب، الأجناس الأدبية، اكتساب اللغة، علم أعراض الكلام.

الباب الرابع: المفاهيم الوصفية (les concepts descriptifs)، وفيه المواضيع التالية: الوحدات الدالة، النطق الصوتي اللساني، نظم الشعر، الكتابة، أقسام الخطاب، الوظائف النحوية للشخصية، القواعد التوليدية، البنيات السطحية والبنيات العميقة، الإحالة تصنيف وقائع المعنى، خطاب الخيال، العلاقات الدلالية بين الجمل، النص، الأسلوب، الزمن وكيفية اللغة، زمن الخطاب، التلفظ، مقام الخطاب، اللغة والفعل[20].

3 النحو

تمتاز الثقافة الإنسانية . على تشعب مجالاتها وتنوع مشاربها . بوجود مستويين متميزين؛ أولهما المستوى العلمي التنظيري الذي يهتم به العلماء والباحثون في ذلك المجال، وتوجه نتائجه . عادة . إلى المختصين، وثانيهما المستوى التعليمي الذي يوجه إلى عامة المتعلمين في جميع المراحل التعليمية.

وإذا كان المستوى الأول يحتاج إلى تطوير وسائل البحث ومناهجيه وأدواته، فإن المستوى الثاني يحتاج إلى تطوير الوسائل التعليمية وطرائق التدريس، ومعرفة حاجات المتعلمين من ذلك العلم، ذلك أن "كل مسعى منهجي محترم ينطلق من تحليل حاجات المتعلمين من ذلك العلم، دلك أن "كل مسعى منهجي محترم ينطلق من تحليل حاجات الجمهور المقصود إنها المرحلة المبدئية التي لا مناص من المرور عليها، فهي التي تبرر المبدأ الأساس الذي يرى أن التعليم يجب أن يكون مركزا على المتعلم"[21] إن تحديد هذه الحاجات هو الذي يساعدنا على تحديد محتوى التعليم والبرامج

الدراسية والمناهج الواجب اعتمادها في العملية التعليمية، مهما كان العلم ومهما كان التخصص.

والنحو، باعتباره أحد الفروع الرئيسية في الدراسات اللسانية يتميز . هو كذلك . بوجود هذين المستويين: المستوى العلمي والمستوى التعليمي (يعبر عنهما بالفرنسية بمصطلحي (le savoir et le savoir faire)، حيث يوجه الأول إلى المختصين من الباحثين والعلماء الذين وهبوا أنفسهم للبحث والتنقيب في أدق دقائق النحو وقد عرف النحو العربي تطورا نادرا ما نجد مثيلا له في العالم فيما يخص النحو العلمي، أدى إلى ظهور مدارس نحوية ذات المناهج والآراء العلمية المتضاربة، فتشعب النحو وكثر فيه التفسير والتعليل والتأويل إلى درجة عالية من الدقة والعملية، حتى إن بعضهم اعتبر هذا من قبيل الترف الفكري[22].

أما المستوى الثاني . المستوى التعليمي . فقد بقي بمثابة الابن الفقير في عائلة النحو، ذلك أن العلماء الذين تصدوا لتدريس النحو في العصور القديمة، وحتى الحديثة لم يميزوا بين مستوييه، وراحوا يلقنون المتعلمين في جميع أعمارهم كل ما يتصل بالنحو العربي دون تحديد حاجاتهم المعرفية وقدراتهم النفسية والعقلية.

وقد أدى هذا الوضع إلى إن أصبح النحو شبحا يخيف المتعلمين بمختلف أعمارهم ومستوياتهم، فتعالت الأصوات في جميع العصور تنادي بضرورة تيسير النحو، وأخرى بضرورة إسقاط الإعراب أو التقليل من أهميته، بل وصلت إلى درجة الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى[23]غير أن بعض العلماء استطاعوا أن يضعوا أصابعهم على أساس

المشكل، وأبرزهم ابن خلدون، الذي أدرك بحسه اللغوي السليم وتذوقه لجمال العربية خطورة النحو والإعراب، حيث ميز تمييزا مستنيرا واعيا بين صناعة الإعراب لذاتها، وبين الملكة اللغوية التي ينبغي العمل من أجل تكوينها في لسان طالب العربية، وعدم الانشغال بقوانين الإعراب المتشعبة، التي لا طائل تحتها في الكتابة والتعبير والمعنى[24]وهو يرى أن "صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية لا نفس الكيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع ولا يحكمها عملا فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذوي مودة، أو شكوى ظلامة، أو نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المفعول والمجرور، ولا شيئا من قوانين صناعة الكتابة من هذا تعلم أن تلك الملكة هي صناعة العربية، وإنما هي مستغنية عنها بالجملة"[25]

فالنحو عنده يجب أن يقتصر على القسط الذي يجعل المتعلم يحصّل الملكة اللسانية، لأنه وسيلة لا غاية، يقول: "فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنصار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها، مثل العربية والمنطق وأمثالها، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط (...) فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال به لغوا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها"[26].

4 . الصوت والحرف

يعرف ابن خلدون الحرف بقوله: "اعلم أن الحروف في النطق(...) هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس، أو بقرع الشفتين أيضا، فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع، وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى (...) ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا، وفي لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم. وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من المعجم[27]

تعريف ابن جني الذي يقول: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مقاطع تُثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمي المقطع أينما عرض له حرفا وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها...[28]

إن هذا التعريف الذي جاء به ابن خلدون يدل على فهم دقيق للظاهرة الصوتية، حيث نجده يميز بين مختلف المخارج، من حلقية ولهوية وحنكية ولسانية وشفوية فالصوت عنده كيفية خروج الصوت من الحنجرة وما يعترض ذلك الصوت من جواجز في مكان معين من المكان معين من الجهاز الصوتي وتختلف الأصوات من أمة إلى أخرى، بحسب ما اختارته كل أمة لنفسها من أصوات من أمة إلى أخرى، بحسب ما اختارته كل أمة لنفسها من أصوات ضمن مجموع الأصوات التي يمكن أن ينطق بها الإنسان إن هذه النظرة الثاقبة تجعلنا نستحضر هنا ما ذهب غليه أندري مارتيني، حين قسم التجربة الإنسانية إلى مستويين من المتفضل، تفضل أول تنتج عنه وحدات دالة سماها (monéme)، وتمفصل ثان تنتج عنه وحدات صوتية غير دالة ولكنها تملك

وظيفة تمييزية سماها (phonéme)، يقول: "نستطيع الآن صياغة مفهومنا للغة فهي آلة للتواصل تتمفصل التجربة الإنسانية . حسبها . بشكل مختلف في كل مجتمع، إلى وحدات ذات محتوى وتعبير صوتي هي الوحدات الدالة (المونيمات)، هذا التعبير الصوتي يتمفصل بدوره إلى وحدات تمييزية متتالية هي الوحدات الصوتية (الفونيمات)، بعدد محدد في كل لغة تختلف طبيعتها وعلاقاتها من لغة إلى أخرى"[29] فالأصوات تتركب منها الكلمات، والكلمات هي التي تتكون منها التجربة الإنسانية، وهو ما أشار إليه ابن خلدون حين قال: "وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر".

ومن جهة أخرى، فإن هذا التعريف يذكرنا بما ذهب إليه يالمسلاف الذي "ينظر إلى اللغة، من حيث إنها تتضمن مستويين؛ مستوى التعبير ومستوى المحتوى يتكون مستوى التعبير من الغطاء الصوتي أو الخطي للفكرة، ويتكون مستوى المحتوى من عالم الفكرة التي تعبر عنها في اللغة.

...نلاحظ أن اللغة في واقعها، تستعمل عددا قليلا من الأصوات اللغوية، في حين أن مستوى التعبير يتكون من مادة مشتركة بين كل اللغات، في حين أن مستوى التعبير يتكون من مادة مشتركة بين كل اللغات، تتألف من الأصوات التي يمكن النطق بها بواسطة الجهاز الصوتي الإنساني إلا أن الطرق التي تتوافق فيها هذه الأصوات، ضمن تنظيم اللغة (أي شكل مستوى التعبير) هي خاصة في كل لغة.

بتعبير آخر، يحتوى مستوى التعبير على مادة تعبيرية صوتية يمكنها أن تكون مشتركة بين سلسة من اللغات الطبيعية وعلى هذه المادة، بالذات، يظهر شكل التعبير وطرق استعماله في لغة معينة"[30].

ومن جهة أخرى، فقد ميز ابن خلدون بين الصوت المنطوق أو المسموع والحرف المكتوب، حيث يقول: "ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على

حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألفٍ وباءٍ وراءٍ وطاءٍ إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحر الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان"[31]. وربما هذا الذي جعل سيبويه يميز في الكتاب بين الأصوات الأصول والفروع، إذ الفروع أصوات تابعة للأصول، ولكنهم عجزوا عن إيجاد مقابلها المكتوب لها، إذ قد يؤدي استعمالها إلى اختلاف المعنى، كما في اللهجات المعاصرة في المغرب العربي (راب وراب بالإمالة الشديدة) و(راح وراح بإمالة شديدة كذلك)، وهي أمور استطاع الرسم القرآني أن يجد لها حلا، كأن يضع نقطة تحت الحرف الممال إمالة شديدة في رواية ورش وابن خلدون نفسه اقترح طريقة الحل مشكلة كتابة الحرف الأعجمي متأثرا في ذلك بالرسم القرآني حيث يقول" "ولما كانت كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست في من كتابتنا، ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلنا، لأنه عندنا غير كاف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته، وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف، فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي"[32]. ولم تختلف الدراسات اللسانية الحديثة عما ذهب إليه ابن خلدون في التمييز بين الصوت اللغوي والحرف المكتوب، حيث يرى عبد الرحمن الحاج صالح أن "الحرف يقابل الصوت في كونه هيئة للصوت يتميز بما عن صوت آخر في المسموع، والحرف شيء مجرد، هو مجموعة تختلف عن الأشياء التي تدخل ضمنها هو مجموعة من العناصر المحسوسة[33].

خـاتمة

هكذا، نلاحظ أن اللسانيات المعاصرة لم تذهب بعيد في طريقة معالجتها لأغلب المسائل التي وجدناها مطروحة عند ابن خلدون، بشكل مباشر أو بشكل عرضي، فوافقت في أغلب الحالات رأيه بشكل صريح، وإن كان الاختلاف في طريقة المعالجة وفي المصطلحات التي أفرزتها كل مرحلة، حيث جاءت الدراسات المعاصرة أكثر شمولية، حيث تناولت الموضوعات من شتى جوانبها، مع دقة منهجية فرضها التقدم العلمية الذي شهدتها اللسانيات في العصر الراهن.

الهوامش

[1]- Noam Chomsky : La linguistique cartésienne » trad par N Delanoé et p. Soerber ; Paris 1969.

[2]-عبد السلام المسدي: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"، دار سعاد الصباح، الكويت / القاهرة ط 4، 1993، ص 152.

[3]-عبد الجليل مرتاض: "ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث"، مجلة اللغة العربية المجلس الأعلى للغة العربية، الجائر، عدد8، 2003، ص83.
وإن كان المسدي يرى أن ظهور ابن خلدون لا يعد بمثابة الطفرة، بل جاء في الوقت الذي كان يجب أن يظهر فيه، لأن العلوم العربية الإسلامية تمخضت وتراكمت ووصلت معه إلى مرحلة قطف الثمار، حيث يقول: "فإذا صح عندك ما افترضنا (...) تبين لك كيف أن ابن خلدون ما كان إلا تمرا طبيعيا لنط الحضارة التي أنشأته، فالتفكير النقدي العربي توليدي كما عرفت، فهو إذا مثمر خصيب وتمرته هي ابن خلدون". قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص 158.

[4]- حسّان حلاق: "مقدمة في مناهج البحث التاريخي" ، دار النهضة العربية، بيروت 1986، ص 310.

[5]-انظر يسرى عبد الغني عبد الله: "معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991، ص 74 (بتصرف).

[6]- المسدي: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون " ، ص 152

[7]-محمد الصبان: "حاشية الضبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك"، المطبعة الأزهرية المصرية، ج1، القاهرة 1305هـ، ص15.

[8]- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، المقدمة، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت ط2- 1998، ص 508.

[9]- Christian Nique : initiation méthodique à la grammaire générative. Armand Colin. Paris1974.p11.

[10]- ميشال زكريا: "قضايا ألنية تطبيعية"، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1993، ص 61 وما بعدها.

[11]-ابن خلدون، المقدمة ص 508.

[12]-المصدر نفسه، ص 500.

[13] Ferdinand de Saussure : cours de linguistique générale ; édition payot ;Paris 1974 p25.

[14]-Ibid ; p 25.

اعتمدنا في هذا النص على ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عينة لكتاب سوسير بعنوان: دروس في الألسنية العامة، الدار العربية للكتاب، تونس 1985، ص 29 غير أنهم يترجمون مصطلح langage كلام،ومصطلح parole لفظ وقد أشرنا في محاضرة ألقيناها بسوسة (تونس) في شهر ديسمبر 2005 بملتقى حركية المصطلح الذي نظمته وحدة البحث "النقد ومصطلحاته" إلى الاختلاف الكبير في ترجمة مصطلحات سوسير بين اللسانيين العرب.

[15]- عبد القادر المهيري: "نظرات في التراث اللغوي العربي"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ص 187.

[16]- هذا الشكل مأخوذ من كتاب: محمد الصغير بناني، "البلاغة والعمران عند ابن خلدون"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996، ص 48.

[17]- ابن خلدون: "المقدمة"، ص 500.

[18]- المصدر نفسه، ص 506.

[19]- عبد الجليل مرتاض: "ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث" ، ص99.

[20]- انظر: Todorov et Ducrot : le dictionnaire encylopédique des sciences du langage éd du seuil ; Paris 1972.

[21] -H.Besse et R .Galisson : polémique en didactique , du renouveau en question ; coll. Didactique des langues étrangères ,CLE international ; Paris 1980, p 54.

[22]- نايف معروف: خصائص العربية وطرائق تدريسها", دار النفائس بيروت 1985.ص 170.

[23]- المرجع نفسه، ص 173.

وهي دعوة حديثة يتزعمها بعض العلماء العرب من أمثال لويس عوض، وأنيس فريحة، غرضها إحداث الهوة السحيقة بين أجيال المسلمين الحاضرة والقادمة، وبين عقيدتهم وتراثهم.

[24]- المرجع نفسه، ص 174.

[25]-ابن خلدون، المقدمة، ص 560.

[26]-المصدر نفسه، ص 493.

[27]-المصدر نفسه، ص 39.

[28]- ابن جني: "سر صناعة الإعراب"، تحقيق مصطفى السقا وأصحابه، البابي الحلبي، القاهرة 1954، ج1،ص06.

[29]- André Martinet : éléments de linguistique générale , Armand Colin , Paris 1980 p 20-21.

[30]- ميشال زكريا: "الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 248.

[31]- ابن خلدون: "المقدمة"، ص 39.

[32]- المصدر نفسه، ص . ي

[33]-"علم الأصوات" (مطبوعة لطلاب معهد اللسانيات والصوتيات)، الجزائر 1972، ص02.